

أَبُو عُبَيْدَةَ



1. يُحَكِّي أَنَّهُ فِي زَمَنِ اشْتَدَّتْ فِيهِ **الْمَحَنُ**، وَتَكَالَبَتْ فِيهِ الدِّثَابُ عَلَى أَرْضِ الزَّيْتُونِ "**فَلَسْطِينُ الْجَرِيحَةِ**"، كَانَ الْقَوْمُ يَنْتَظِرُونَ بُشْرَى، أَوْ كَلِمَةً تُعِيدُ إِلَيْهِمُ الْعَزِيمَةَ وَتَشُدُّ مِنْ أَرْزِهِمْ، وَقَدْ كَانَتْ **الْقُلُوبُ** **وَاجِفَةً**، وَالْعَيُونُ **شَاخِصَةً** نَحْوَ الْأُفُقِ، وَالظَّلَامُ يُحَاوِلُ أَنْ يَظْمَسَ نُورَ الْحَقِيقَةِ.

2. فِي غَمْرَةِ ذَلِكَ الصَّمْتِ الْمُهِيبِ، ظَهَرَ فَارِسٌ لَيْسَ كَبَاقِي الْفَرَسَانِ. لَمْ يَكُنْ يَرْكَبُ **جَوَادًا مُطَهَّمًا**، بَلْ كَانَ **يَمْتَطِي صَهْوَةَ الْكَلِمَاتِ**، وَسِلَاحُهُ بَيَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ. كَانَ هَذَا الْفَارِسُ مَجْهُولُ الْمَلَامِجِ، قَدْ عَصَبَ رَأْسَهُ بِكُوفِيَّةٍ حُمْرَاءَ كَأَنَّهَا رَايَةُ نَصْرِ، وَتَلَثَّمَتْ بِقِطْعَةٍ قُمَاشٍ أَخْفَتْ وَجْهَهُ، لَكِنَّهَا لَمْ تُخَفِ حِكْمَتَهُ مِنْ بَرِيقِ عَيْنَيْهِ.

3. كَانَ إِذَا وَقَفَ أَمَامَ النَّاسِ، هَذَا الصَّبِيحُ، وَأَصْغَتِ الْأَذَانُ. لَمْ يَكُنْ يَصْرُخُ، بَلْ كَانَ يَنْطِقُ حُرُوفًا كَأَنَّهَا الرِّصَاصُ فِي دِقَّتِهَا، وَكَأَنَّهَا الْبَلَسَمُ فِي أَثَرِهَا عَلَى قُلُوبِ الصَّابِرِينَ، وَكَانَ يَرْفَعُ إصْبَعَهُ وَاثِقًا، فَيَتَحَدَّثُ بِلُغَةٍ عَرَبِيَّةٍ فُصْحَى، تُذَكِّرُ السَّامِعِينَ بِخُطْبِ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْفَرَسَانِ وَالشُّعْرَاءِ.

4. يَسْأَلُ الْأَطْفَالُ آبَاءَهُمْ: "مَنْ هَذَا الْفَارِسُ الْمُثَلَّمُ؟ وَلِمَذَا يَخْشَاهُ الْأَعْدَاءُ رَغْمَ أَنَّهُ لَا يَحْمِلُ سَيْفًا وَلَا يَمْتَطِي حِصَانًا؟" فَيَجِيبُونَهُمْ: ". إِنَّهُ يَعْلَمُنَا أَنَّ الْقُوَّةَ لَيْسَتْ فِي الْعَصَلَاتِ فَحَسْبُ، بَلْ فِي الْعَقْلِ الرَّاجِحِ وَاللِّسَانِ الْفَصِيحِ الَّذِي لَا يَزْتَجِفُ رَغْمَ كَيْدِ الْأَعْدَاءِ، فَسِلَاحُ الْحَقِّ أَحَدٌ مِنَ السُّيُوفِ، وَهَذَا الْفَارِسُ لَا يَنْطِقُ إِلَّا بِالصِّدْقِ، فَالْكَلِمَةُ الْحُرَّةُ عِنْدَ الظَّالِمِ أَشَدُّ وَطْأَةً مِنَ السِّلَاحِ، لِأَنَّهَا تُعَرِّي زَيْفَهُ، وَتَهْدِمُ مَا بَنَاهُ مِنْ أَوْهَامٍ فَوْقَ رِمَالِ الْخَدِيعَةِ، فَتَوْقُظُ هِمَمًا كَانَتْ نَائِمَةً. لِهَذَا يَخَافُ مِنْهُ الْعَدُوُّ ".

5. ظَلَّ الْفَارِسُ يَظْهَرُ كُلَّمَا اشْتَدَّ الْخُطْبُ، يَزُفُ الْبَشَائِرَ، وَيُوَاسِي الْجِرَاحَ، وَيَقُولُ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ: "إِنَّهُ لَجِهَادٌ... نَصْرٌ أَوْ اسْتِشْهَادٌ". صَارَتْ كَلِمَاتُهُ **وَقُودًا لِلْهِمَمِ**، وَصَارَ لِثَامُهُ رَمْزًا لِلْعِزَّةِ الَّتِي لَا تَنْحَنِي.

6. وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ، وَعَرَفَ الصِّغَارُ وَالْكِبَارُ أَنَّ خَلْفَ ذَلِكَ اللَّثَامِ رَجُلًا نَذَرَ صَوْتَهُ لِيَكُونَ سَيْفًا لِأُمَّتِهِ ضِدَّ أَعْدَائِهَا، وَاسْمُهُ الَّذِي رَدَّدَتْهُ الْأَلْسُنُ وَالْجَوَارِحُ: "أَبُو عُبَيْدَةَ، وَكَانَ اسْمُهُ الْحَقِيقِيُّ: حُدَيْفَةُ الْكُحْلُوتِ".

كتبه: الأستاذ معجوج حسام



القاموس اللّغوي (شرح المفردات الصعبة):

- **المَحَن:** المَصَائِبُ وَالشَّدَائِدُ.
- **تَكَالَبَت:** تَجَمَّعَت لِلْهُجُومِ بِشَرَّاسَةٍ.
- **الْقُلُوبُ وَاجِفَةٌ:** خَائِفَةٌ وَمُضْطَرِبَةٌ.
- **جَوَادًا مُطَهَّمًا:** حِصَانًا تَامَ الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ / فَرَسًا أَصِيلًا.
- **يَمْتَطِي:** يَرْكَبُ.
- **صَهْوَةٌ:** مَوْضِعُ الرُّكُوبِ عَلَى ظَهْرِ الْحِصَانِ.
- **أَشَدُّ وَطْأَةً:** أَقْوَى تَأْثِيرًا.
- **وَقُودًا لِلْهَمَمِ:** دَافِعًا قَوِيًّا يُشْعِلُ الْعَزَائِمَ وَيُقَوِّي الْحِمَاسَ.

